جامعة المنصورة
كلية التربية

الأسلوبُ الخبريُّ
بينَ المخاطِبِ والمخاطَبِ
من خلال أحاديث : (اللؤلؤ والمرجان)
فيما اتفق عليه الشيخان : (البخارى ومسلم)

إعداد
د. محمد السيد عبد الرازق موسى
أستاذ مساعد البلاغة والنقد
كلية التربية - جامعة المنصورة

مجلة كلية التربية - جامعة المنصورة - العدد ٧٥ - الجزء الثانى - يناير ٢٠١١

الأُسْلُـوبُ الخَـبَرِيُّ بَـيْنَ المخَاطِـبِ وَالمخَاطَـبِ

د. محمد السيد عبد الرازق موسى

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، نبينا محمد ﷺ.. وبعد..

فلقد كان النبي ﷺ أفصح العرب «أنا أفصح العرب، بَيْدَ أنِّي مِنْ قُرَيْش». ولقد أُوتى جوامع الكلم، فكان القول يأتيه طواعية دون تكلف أو استكراه أو قصد إلى تزيين، بل كان يسترسل في الكلام على البداهة وطول المقام ومهما فاجأه من أغراض للكلام يحتاج إلى رويّة أو نظر التمام، فهو يصيب المعنى بلفظ نبويّ معمور بقلب متصل بجلال خالقه، مصقول بلسان قوّمَهُ القرآن الكريم بحقائقه، تلك هي البلاغة النبوية التي «إن خرجت في الموعظة قلتَ: أنين من فؤاد مقروح؛ وإن راعتْ بالحكمة قلتَ: صورة بشرية من الروح؛ في مَنزَعٍ يلينُ فينفرُ بالدموع، ويشتدُّ فينزو بالدماء؛ وإذا أراك القرآن أنه خطابُ السماء للأرض أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء. وهى البلاغة النبوية، تعرف الحقيقة فيها كأنها فكر صريح من أفكار الخليقة، وتجيء بالمجاز الغريب فترى من غرابته أنه مجاز في حقيقة».[1]

وإذا كان الخطيب المفوّه أو الشاعر المفلق من العرب الفصحاء الخلّص يقوم على كلامه من حيث التهذيب وإحكام التجويد؛ فإن ذلك يكون عن طول نظر لا يسلم بعده من الزلل، أو السقوط هنا أو هناك في مواضع الخلل والإخلال، فيضطرب منه قصيد القول وتتزلق قدمه في مهاوى الحذف حيث كان الإطناب، أو يطلب الإطناب في موضع الحذف.

١- مصطفى صادق الرافعي – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – ط٤ – مطبعة الاستقامة – القاهرة – ١٩٤٥م.

بيد أن النبي ﷺ كان بصيرًا بمواضع الكلم وجوامعه، كما كان بصيرًا بمواضع النفوس، خبيرًا بأحوال المخاطبين الذين يتلقون عنه ويستمعون إليه، وهو - ﷺ - على يقين بخلود كلماته ودوام عباراته ما بقى الزمان ومرّت الأحقاب، وهو في ذلك قد «جلَّ عن الصنعة ونُزِّه عن التكلف، فكيف وقد عاب التشديق وجانب أصحاب التقعير، واستعمل المبسوط في البسط، والمقصور في موضع القصر، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد ويسر بالتوفيق».[١]

وعن فصاحته وحسن بيانه وبلوغه البلاغ المبين، تقول أم المؤمنين عائشة ك : «كان رسول الله ﷺ لا يسرد سردكم هذا، يتكلم بكلام بينة فصل، يحفظه من سمعه».[٢]

وعنها - أيضاً - : «أن النبي ﷺ كان يُحدِّث حديثًا لو عَدَّه العادُّ لأحصاه».[٣] ومن ذلك من أُثر عنه من شيوع جوامع الكلم التي أخبر بها عن نفسه ﷺ : «أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِم».. ومن ذلك قوله ﷺ يوم حنين: «الآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ»، وهذا من أوجز العبارات وأشمل المعاني وأبدع التصوير، وهو قول «لم يسمع من أحد من قبل رسول الله ﷺ، ولو أتينا بمجاز غير ذلك في معناه فقلنا: «استَعَرتِ الحربُ» لما كان مؤديًا من المعنى ما يؤديه «حَمِيَ الوَطِيسُ» والفرق بينهما أن الوطيس هو التَّنُّور، وهو موطن الموقد ومجتمع النار، وذلك يخيل إلى السامع أن هناك صورة شبيهة بصورته في حميمها وتوقدها، وهذا لا يوجد في قولنا: «استَعَرَتِ الحَرْبُ» أو ما جرى مجراه، وكذلك قال ﷺ : «بُعثتُ

١- الجاحظ - البيان والتبيين - تحقيق محب الدين الخطيب - مطبعة الفتوح - القاهرة - ١٣٣٢ هـ - ٨/٢.

٢- مسند الإمام أحمد .

٣- رواه البخاري ومسلم .

في نَفَسِ السَّاعَة» فقوله: «نَفَس السَّاعَة» من العبارة العجيبة التي لا يقوم غيرها مقامها، لأن المراد بذلك أنه بعث والساعة قريبة منه».[١]

والأسلوب الخبري قد كثر في الحديث النبوي كثره تستحق الوقوف والتأمل؛ لأن هذا الأسلوب إنما خرج من لسان عربيٍّ مبين, وذهنٍ يقظٍ واعٍ يراعي الفروق الفردية وأحوال النفس الإنسانية، وما انطوت عليه من انفعالات أو ما واجهته من مقامات مختلفة أو متباينة أو من حيث طبيعة الموضوع, وقديمًا عدّوا بلاغة الكلام «مطابقته لمقتضي الحال مع فصاحته, ومقتضي الحال مختلف؛ فإن مقامات الكلام متفاوتة, فمقام التنكير يباين مقام التعريف, ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد, ومقام التقديم يباين مقام التأخير, ومقام الذكر يباين مقام الحذف, ومقام القصر يباين مقام خلافه, ومقام الفصل يباين مقام الوصل, ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة, وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي, وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام».[٢]

ولكل كلام وجهة هو موليها، ويسري في تيار التأثر والتأثير بين المبدع والمتلقي في إطار المؤثرات الخارجية الأخرى، «فمن المشكوك فيه أن يستطيع الأديب عرض العواطف القوية أو بعثها في نفوس قرائه دون أن يحسها في نفسه قوية ثم يتنفس عنها بهذا الأدب القوي التأثير، والشاعر لا يبكيك إلا إذا استنفد ماء شئونه، ولا يشجيك إلا إذا استطار الهوى بلُبِّه، والعامل الفذ للظفر بالسلطان العاطفي على القراء هو انبعاث الشعر والنثر عن نفس منفعلة صادقة الشعور».[٣]

١- ابن الأثير – المثل السائر – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية – بيروت – ١٩٩٥ – ١/٦٥.

٢- عبد المتعال الصعيدي – بغية الإيضاح – مكتبة الآداب – القاهرة – ١٩٩٩ – ١/٢٠

٣- أحمد الشايب – أصول النقد الأدبي – نهضة مصر – صـ١٨٠.

وقد أفاض البلغاء في الحديث عن الأسلوب الخبري وأحوال إسناده، وهم في ذلك لم يغفلوا دور المتكلم ولاحق المتلقي في التناسب والمناسبة بين المرسل والمرسل إليه، ففرقوا بين طبيعة المتلقي خالي الذهن أو المتردد أو المنكر، وجعلوا للأول نوعًا من الخبر أسموه: الخبر الابتدائي، وللثاني الطلبي المشتمل على توكيد واحد، وللثالث الخبر الإنكاري المشتمل على أكثر من توكيد لتناسب حالة المتلقي ودرجة اندماجه وانفعاله مع المتكلم الذي راح يزن الكلام بميزان مقتضى حال المتلقي..

وكل هذه الأحوال ترسخ في ذهن المتكلم وهو ينشئ الخبر ليمتلك بها نفس ذلك المخاطب، ويأسر بها ذهنه، ويؤثر في جَنَانِهِ، ثم إنّه قد يتحوَّل عن ذلك كله؛ ليخالف تلك الأحوال وينشئ أسلوبًا خبريًّا آخر قد خرج على خلاف مقتضى الظاهر، فينزل غير السائل منزلة السائل، أو ينزل غير المنكر منزلة المنكر أو العكس من ذلك كله، وقد دعاه إلى ذلك وألجأه إليه طبيعة المقام وصفة الأحوال أو الأمارات التي تلوح وتظهر له، مستخدماً الإثبات حيث يراه داعيًا، أو النفي حيث يلوح مقتضيًا، أو يراوح بين استخدام الفعل والاسم متى كان هذا أو ذاك مناسبًا أو لازمًا، «وإذا قد ثبت أن الخبر وسائر معاني الكلام معان ينشئها الإنسان في نفسه، ويصرفها في فكره، ويناجي بها قلبه، ويرجع فيها إليه، فاعلم أن الفائدة في العلم بها واقعة من المنشئ لها، صادرة عن القاصد إليها، وإذا قلت في الفعل: إنه موضوع للخبر لم يكن المعنى فيه أنه موضوع لأن يعلم به الخبر في نفسه وجنسه ومن أصله وما هو، ولكن المعنى أنه موضوع حتى إذا ضممته إلى اسم عقل منه ومن الاسم أن الحكم بالمعنى الذي اشتق ذلك الفعل منه على مسمى ذلك الاسم واقع منك أيها المتكلم».[1]

١- عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي – مكتبة القاهرة – ١٩٨٠ – صـ٤٩٧.

والحديث النبوي قد بلغ الذروة في البيان، وكيف لا وصاحبه ﷺ أفصح العرب، قد أوتى جوامع الكلم، فلا يرتفع فوقه إلا كتاب الله تعالى، وقد اشتملت معاني الحديث على «صفات قلّ أن تجتمع في كلام سواه، ومن هذه الصفات: الغنى في الأفكار، والعمق، والجدّة، والإحكام، والغوص في أغوار النفس الإنسانية، وملامسة أبعاد هذه النفس، مما مكّن لهذه المعاني أن تكون خالدة على وجه الدهر».[١]

وقد دار مجال البحث مع الأحاديث المتفق عليها من خلال كتاب: «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» لواضعه الأستاذ/ محمد فؤاد عبد الباقي؛ الذي التزم فيه بذكر نص حديث البخاري الذي هو أقرب النصوص انطباقًا على نصّ الحديث الذي اتّفق فيه مُسلم معه.[٢]

ولاشك أن هذه المنزلة السامية والدرجة العالية في التحري والتوثيق الدقيق تجعل النفس مطمئنة إلى ثبوت النص وصحة نسبته إلى النبي ﷺ، على «أن الحديث النبوي قد ظفر بجهود ضخمة في التحري والدقة والتثبت من صحة نسبته إلى النبي ﷺ على وجه لم يظفر بها نصٌّ من النّصوص الأخرى.. والمحَدِّثُون عندما يحكمون لحديث بأنه صحيحٌ أو حَسَنٌ فإن هذا الحديث يكون من أوثق النُّصُوص لاصطناعهم وسائل في منتهى الدقة والإحكام في توثيقه».[٣]

وسوف نقف -بإذن الله تعالى- مع الأسلوب الخبري النبوي بين المخاطِب والمخَاطَبِ، وذلك من خلال أربعة محاور:

١- د. محمد لطفي الصباغ - التصوير الفني في الحديث النبوي - ط ١ - المكتب الإسلامي - بيروت - ١٩٨٣ - صـ٢٣.

٢- محمد فؤاد عبد الباقي - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - دار الحديث - القاهرة - ٢٠٠٧ - صـ٧.

٣- د. محمد لطفي الصباغ - التصوير الفني في الحديث النبوي - صـ٢٥.

- أولاً: الأسلوب الخبري في الحديث عن عالم الغيب.
- ثانياً: الأسلوب الخبري في الحديث عن عالم الشهادة.
- ثالثاً: الأسلوب الخبري في أحاديث الإعجاز والمعجزات.
- رابعاً: الأسلوب الخبري واللغة.
- ثم الخاتمة وثبت المصادر والمراجع.

أوّلاً: الأُسلُوبُ الخَبَرِيُّ فِي الحَدِيثِ عَنْ عَالَمِ الغَيْب

إن الحديث عن عالم الغيب وما خفي عن أعين الناس يحتاج إلى طبيعة أسلوبيَّة مميزة تقوم على الدقة والاستحضار ومحاصرة الأذهان وأسر القلوب، ولاسيما إذا كان المتلقي بين المؤمن والمنكر، والمسلِّم والمتربّص، ويكون المتكلم حينئذ مستجمعًا فكره وملكاته؛ ليصوّب ويصيب الهدف في عناية وكمال، فهو قبل أن يتكلم بلسانه يرصد بقلبه، ويقول بجوارحه وهو يتفرس آفاق المتلقين وينفذ إلى أغوارهم..

والنبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىَ ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىَ﴾.[1] فهو يحمل الوحي من ربه – ﷻ – ويصوغه بصدق عاطفته وقوة مشاعره مراعيًا مقتضى الحال، ومن ذلك قوله ﷺ : «لا أُلفِيَنَّ أحدكم يومَ القيامةِ على رقَبتِهِ شاةٌ لها ثغاءٌ، على رقَبتِهِ فرَسٌ لهُ حَمْحَمة، يقول: يا رسولَ اللهِ أغِثْني، فأقولُ: لا أملِكُ لكَ شيئًا، قد أبلغتُك. وعلى رقبتِهِ بعيرٌ لهُ رُغاءٌ يقولُ: يا رسولَ اللهِ أغِثْني، فأقولُ: لا أملِكُ لكَ شيئًا، قد أبلغتُك، وعلى رقَبتِهِ صامِتٌ فيقولُ: يا رسولَ اللهِ أغِثْني، فأقولُ: لا أملِكُ لكَ شيئًا، قد أبلغتُك، أو على رقبتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فيقولُ: يا رسولَ اللهِ أغِثْني، فأقول: لا أملكُ لكَ شيئًا

١- قالنجم [٤-٥].

قد أبلغتُك».[١]

فقد زخر هذا الحديث الشريف بتتابع الأساليب الخبرية وتواليها في سياق مفعم بالتهديد والزجر والوعيد، وقد بدأ ﷺ هذه الأساليب الخبرية بقوله: (لا ألفين) وهو أسلوب خبري جاء بلفظ النفي المؤكد، والمراد به النهي، «وهو وإن كان من نهى المرء نفسه فليس المراد ظاهره، وإنما المراد نهي من يخاطبه عن ذلك وهو أبلغ».[٢] وهنا التحول في الأسلوب يكون من أجل تحريك النفس وحضها على أمر مهم حتى تأخذه بمأخذ الجد فلا تحيد عنه ولا تتردد فيه.. وهو من الأساليب المتعارف عليها عند العرب، وقد جاء الأسلوب القرآني مؤكدًا لها في أكثر من موضع، كما في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيَ إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ﴾ [البقرة٨٣]

فقوله تعالى: (لا تعبدون إلا الله) خبر في معنى الأمر ومجيء الخبر للأمر أبلغ من صيغة الأمر؛ لأن الخبر مستعمل في غير معناه لعلاقة مشابهة الأمر الموثوق بامتثاله بالشيء الحاصل حتى إنه يخبر عنه.[٣]

ومثل ذلك ما جاء من الجملة الخبرية الدالة على الأمر، فجاء العدول عن الأمر إلى صيغة الخبر، وذلك في قوله تعالى:

﴿ يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ هَلْ أَدُلّكُمْ عَلَىَ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لّكُمْ إِن كُنتُمْ

١- اللؤلؤ والمرجان صـ٣٩٦ رقم ١٢٠١.

٢- ابن حجر العسقلاني – فتح الباري بشرح صحيح البخاري – مراجعة وتصحيح: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب وقصي الخطيب – ط ١ – دار الريان – القاهرة – ١٩٨٦ – ٢١٥/٦.

٣- ابن عاشور – التحرير والنور – دار سحنون – تونس – ١٩٩٧ – ٥٨٢/١.

تَعْلَمُونَ ۞ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الصف ١٠: ١٢]

بجزم المضارعين: «يغفر» و «يدخل» في جواب الجملة الخبرية المقصود بها الأمر، والتقدير: آمنوا بالله.. وجاهدوا.. يغفر لكم.[١]

ثم تمضى الجمل الخبرية في إيقاع سريع يوحي بجو مشهد القيامة والحساب: على رقبته شاة لها ثغاء، على رقبته فرس له حمحمة.. وعلى رقبته بعير له رغاء.. وعلى رقبته صامت.. أو على رقبته رقاع تخفق..

وهو مشهد متكامل الأجزاء والخطوط، يموج بالصوت والصمت والحركة الخفاقة.. فيعج المشهد بصوت الشاة (الثغاء)، ثم لا يلبث حمحمة الفرس أن تقرع أذن المستمع لتهيئ له طبيعة، ذلك المشهد المتمثل في طلب الفرس لما يأكله ولهذا آثر النبي ﷺ (حمحمة) على (الصهيل)، وكأن الفرس قد رأى صاحبه هذا علفًا له فتهيأ لأكله، فيتفاجأ المتلقي بصوت ثالث هو صوت رغاء البعير، وبينما الأمر كذلك، إذ يقطع هذا الصخب الصوتي حلقة صامتة، وكأنها حلقة مفرغة تذهب بالذهن مذهبًا آخر؛ لتلقى في خياله مشهدًا آخر يكون سيده الصمت، وقد مثّله الأسلوب الخبري : (وعلى رقبته صامت) أي: الذهب والفضة.

وتأتي الأداة (أو) لترسم مغايرة لما سبق، فيكون الخبر: أو على رقبته رقاع تخفق، وهذه الصورة الحركية من شأنها أن تحرك القلب وتهز النفس بهذه الحركة الخفاقة المضطربة؛ التي تخفق بالقلوب وتصور الجو العام متوترًا مضطربًا فيحصل المراد من الزجر والوعيد والتنفير من تلك الأعمال..

١- عباس حسن – النحو الوافي – ط٣ – دار المعارف – مصر – صـ٣٦٦.

هذا وقد تخلل ذلك المشهد الخبري: أسلوب خبري مكرر من قوله ﷺ : لا أملك لك شيئًا، بتنكير (شيئًا) في سياق النفي المفيد للعموم والشمول والإطلاق.. أي: «من المغفرة؛ لأن الشفاعة أمرها إلى الله، وقوله: «قد بلغتك» أي: فليس لك عذر بعد الإبلاغ، وكأنه ﷺ أبرز هذا الوعيد في مقام الزجر والتغليظ، وإلا فهو في القيامة صاحب الشفاعة في مذنبي الأمة».[١]

وقد بلغت هذه الأساليب الخبرية غايتها وذروة بلاغتها بالضرب على الوتر الموجع في النفس البشرية؛ فالخبر صادر من أفصح العرب ﷺ وهو بصير بنفوس سامعيه والمتلقين من بعد، وهو يعرف ما تُلقيه هذه الأخبار من ظلال أليمة في النفس، وهي تجسم تلك المشاهد الحية على أعين الخلق، وفي معاينة قوية تخاطب حواس الإنسان المختلفة، وتنفذ إلى معنوياته ودواخله؛ ولذلك «لا يقال: إن بعض ما يسرق من النقد أخف من البعير مثلاً، والبعير أرخص ثمنًا، فكيف يعاقب الأخف جناية بالأثقل وعكسه؟! لأن الجواب أن المراد بالعقوبة بذلك: فضيحة الحامل على رؤوس الأشهاد في ذلك الموقف العظيم لا بالثقل والخفة، قال ابن المنير: أظن الأمراء فهموا تجريس السارق ونحوه من هذا الحديث».[٢]

وكثيرًا ما كان النبي ﷺ يبدأ حديثه بالجملة الخبرية المؤكدة (بإن)، وهو يوجه حديثه لمن آمن به واستقر يقينه، ولكنه نوع من التفنن الأسلوبي الذي يأسر به لُبَّ المتلقي ويشركه في حوار خفي يفترضه في مطلع الكلام، كقوله في وصف شيءٍ من نعيم الجنة لبعث الترغيب وتنشيط الهمة:

١- فتح الباري ٦/٢١٤.

٢- فتح الباري ٦/٢١٦.

- «إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّها مائَةَ عامٍ، لا يَقْطَعُها».[١]
- «إِنَّ الله يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ؛ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ..».[٢]
- «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرَفَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ فِي السَّمَاءِ».[٣]
- «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ...».[٤]

• أو قوله لغرض البيان والتوضيح وبعث الرهبة:

- «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً..».[٥]
- «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ..».[٦]
- «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ...».[٧]

وهذا يعد من براعة الاستهلال الذي يأسر ذهن السامع، ويأخذ بلُبِّ المتلقّي، فيشارك المتلقي المتكلم طواعيةً واختيارًا.. فكأن النبي ﷺ افترض في متلقيه هذه الأسئلة وراح يجيب عنها، فهو يستنطق المتلقي سؤاله؛ ليفاجئه بالجواب من حيث لا يترقب، فكأنه قيل: هل في الجنة شجرة؟ أو كيف يكون شجر الجنة؟..

هل يخاطب الله تعالى أهل الجنة في الجنة؟.. كيف تكون صورة أول من

١- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٤٤ رقم ١٧٩٩.
٢- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٤٥ رقم ١٨٠٢.
٣- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٤٥ رقم ١٨٠٣.
٤- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٤٦ رقم ١٨٠٥.
٥- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٥١ رقم ١٨١٨.
٦- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٥٣ رقم ١٨٢٢.
٧- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٥٣ رقم ١٨٢٤.

يدخل الجنة؟.. كيف يحشر الناس يوم القيامة؟..

ودائرة التفاعل الخطابي توحي بجو المشهد، فالمتلقون لم يكونوا على دراية أو بينة بتلك الأخبار، بل صادفت خلاف ما في النفس من خيال أو ظن، ولذلك قالت أم المؤمنين عائشة : عندما سمعت النبي ﷺ يقول: «تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُـرَاةً غُرْلاً» قَالَتْ عَائِشَةُ : فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُـهُمْ إِلَـى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ».(١)

وإذا كان كذلك وجب إذا قيل: إنها جواب سائل ليشترط فيه أن يكون للسائل ظن في المسئول عنه على خلاف ما أنت تجيبه به؛ فأما أن يجعل مجرد الجواب أصلاً فيه فلا؛ لأنه يؤدي أن لا يستقيم لنا إذا قال الرجل: كيف زيد؟ أن تقـول: صالح، وإذا قال أين هو؟ أن تقول: في الدار. وأن لا يصح حتى تقـول: إنـه صالح، وإنه في الدار. وذلك ما لا يقوله أحد.(٢)

وقد يأتي الأسلوب الخبري في مطلع الحديث الشريف في مقـام الترغيـب والترهيب بادئًا بالجملة الفعلية التي لم يأت على وتيرة واحدة.. فقد تأتي بالفعل الماضي المبني للمجهول نحو قوله ﷺ عن أبي هريـرة ﷺ : «حُجِبَـتْ النَّـارُ بِالشَّهَوَاتِ وَحُجِبَتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ».(٣)

وهذا الأسلوب الخبري التصويري من شأنه أن ينقل المتلقـي إلـى عـالم المحسوس والمشاهدة وهو يتخيل هذا الحجاب الخفي الذي ستر النار خلفه وكذا الجنة أيضًا.. فقد قام الفعل المبني للمجهول بتقريب هذا المشهد المجهول إلـى العين، ورسم صورة النار والجنة وهي مغلفة بهذا الغلاف، وتقدّم ذكـر النـار؛

١- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٥١ رقم ١٨١٧.

٢- دلائل الإعجاز صـ٣٢٥.

٣- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٤٤ رقم ١٧٩٧.

لأن سبيلها اقتحام تلك الشهوات المحرمة، وهي أكثر إغراء واستهواء لخلق كثير، وأخَّر ذكر الجنة لقلة عباد الله الشاكرين، وخصها بذكر المكاره؛ ليصور جهد المؤمن ومجاهدته ومثابرته في حبس النفس على الطاعة ومشاقها، وصرف النفس عن المعصية مع انتشار وسائلها وسهولة اقترافها..

قال الإمام مالك : قال العلماء : هذا من بديع الكلام وفصيحه وجوامعه التي أُوتيها ﷺ من التمثيل الحسن، ومعناها: لا يوصل إلى الجنة إلا بارتكاب المكاره، وإلى النار بارتكاب الشهوات، وكذلك هما محجوبتان بهما. فمن هتك الحجاب وصل إلى المحجوب.[١]

ويأتي الإسناد الخبري – أيضًا – بالجملة الفعلية المبنية للمجهول في مثل هذا المقام: مقام الترغيب والترهيب وتصوير بعض مشاهد الغيب عن الموت والآخرة، وقوله ﷺ : «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ وإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ قَالَ: فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ..».[٢]

فقد رسمت هذه المغايرة اللفظية «وُضِعَ – تَوَلَّى – لَيَسْمَعُ» مهابة المشهد ورهبته فهو: «وُضِعَ» دون إرادته أو اختياره على خلاف ما كان يصنع في دنياه، و «تَوَلَّى» بالبناء للمعلوم ليعكس المشهد بجسامته ومواجهة المصير وحده.. ثم جاءت الجملة الخبرية الاعتراضية «وإنهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ» فهذا السماع بالبناء للمعلوم «لَيَسْمَعُ» لاستحضار هذا السماع الفعلي، وجاءت الجملة مؤكدة بمؤكدين: «إن – اللام» وهو من قبيل تنزيل غير المنكر منزلة المنكر لطفًا بالنفس المستمعة وإزالة أدنى شائبة في الصدور، وهو مناسب لتصوير ذلك المشهد الغيبي الخفي؛ فضلاً عما رسمه الفعل «قَرْعَ» من مشهد صوتي يتجاوب

١- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٤٤.

٢- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٥٣ رقم ١٨٢٤.

مع مشهد السماع «لَيَسْمَعُ» ومثال ذلك التعبير للبناء للمجهول قوله ﷺ :

- «تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً».(١)
- «يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلاَثِ طَرَائِقَ رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ..».(٢)
- «يُؤْتَى بالموتِ كهيئةِ كبش أملَحَ..».(٣)
- «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ..».(٤)
- «إذا أُقعِدَ المؤمنُ في قبرِهِ أُتِيَ..».(٥)
- «إذا صارَ أهلُ الجَنَّةِ إلى الجَنَّةِ، وأهلُ النارِ إلى النارِ، جيء بالموت حتى يُجْعَلَ بَيْنَ الجنةِ والنارِ».(٦)
- «مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ..».(٧)

فهذه الباقة المتنوعة من اختيار الأفعال وطبيعة بنائها لخليق بها أن ترسم اللوحة المتكاملة والمشهد المتجانس.. فهذه المراوحة بين أفعال الحشر والإتيان والعرض والإقعاد انتهاء بالحساب والعذاب، من شأنها أن تجسم المهابة والرهبة وتحلق بالخيال في آفاق هذا العلم الغيبي، «فالوظيفة التي يقوم بها الأسلوب تتركز بصفة عامة في مراقبة «كيف» البناء الأدائي في طريقة تركيب الجملة وفي موضع «المفردة» وفي نسج العبارة، وفي متابعة تركيب العناصر التشكيلية

١- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٥١ رقم ١٨١٧.
٢- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٥٢ رقم ١٨١٩.
٣- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٤٩ رقم ١٨١١.
٤- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٥٣ رقم ١٨٢٢.
٥- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٥٤ رقم ١٨٢٥.
٦- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٤٩ رقم ١٨١٢.
٧- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٥٥ رقم ١٨٢٧.

في تكويناتها اللغوية والفنية».[1]

وإذا كان المشهد مشهد محاجة أو تصوير التخاصم بلسان الحال أو المقال في سرد قصص وجدنا الاستهلال بالجملة الخبرية الفعلية المبنية للمعلوم، ويقول ﷺ : «تَحَاجَّتِ الجنة والنّار، فقالت النّار: أُوثِرْتُ بالمتكَبِّرين والمتجبِّرين، وقالت الجنّة: مالي لا يَدخُلُني إلا ضُعَفاء الناس وسقَطُهم، قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنتِ رَحْمَتي أَرحَمُ بك من أشاءُ من عبادي، وقال للنّار: إنما أنتِ عذابٌ أُعذِّبُ بك من أشاء من عبادِي..».

فهذا مشهد حيّ يموج بصيحات الجدال والتخاصم، فتناسبه البناء للمعلوم؛ ليظهر الطرفان –الجنة والنار– وكأنهما شخصان في ساحة المحكمة والقضاء، وكأنهما في مقام التنازع.. وقد أبرز هذه المواجهة والحوار المتبادل أسلوب المقابلة الذي جسد مشهد النار ولهيبها وما فيها من متكبرين وجبارين، ومشهد الجنة ونعيمها وما فيها من ضعفاء وفقراء، ومن كان يحتقرهم الناس في الدنيا.

وقد اقتضى مقام الكلام القصصي أن تتوالى الأساليب الخبرية التي يفيد منها المتلقي الغرض والغاية التي سيقت من أجلها، وهي إثارة الرغبة في الإقبال على الجنة والعمل بصفة أهلها من التواضع والخضوع لله تعالى،، وبعث النفور في النفس وترهيبها من النار وصفات أهلها من التكبر والتجبر وفيها إفادة المدح والذم لهؤلاء وهؤلاء ورسم الصورة المشخصة لهم؛ حتى تبدو ماثلة أمام الأعين..

وفي هذا جاء مطلع الحديث بالأسلوب البلاغي الإطناب بصورته: الإيضاح بعد الإبهام في قوله: «تَحَاجَّتِ الجنة والنّار، فقالت النّار..» وذلك «ليُرى المعنى

١- د. رجاء عيد – البحث الأسلوبي معاصرة وتراث – منشأة المعارف – الإسكندرية – ١٩٩٣ – صـ١٩٣.

في صورتين مختلفتين أو ليتمكن في النفس فضل تمكُّن، فإن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام، تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فتتوجه إلى ما يراد بعد ذلك فإذا أُلقيّ كذلك تمكن فيها فضل تمكن، وكان شعورها به أتمّ، أو لتكمل اللذة بالعلم به».[١]

وهذا التفصيل بعد الإجمال السابق، قد سلك فيه سبيل النشر المعكوس، وكل هذا التفنن الأسلوبي هو من أجل المتلقي ومحاصرته ذهنيًا ونفسيًا؛ حتى يقبل على المتكلم بكل حواسّه ومدركاته.

ومن أساليب التنوع الخبري في الحديث النبوي، أن يأتي بالخبر في سياق النفي والإثبات، وهذا الأسلوب «للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه فإذا قلت: ما هو إلا مصيب، أو ما هو إلا مخطئ، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته».[٢]

النبي ﷺ كان يكلم أصحابه المؤمنين به، ويعتقدون في كلامه اعتقادًا تامًّا، وهو مع ذلك قد أتى بهذا الأسلوب في بعض المواضع، وهو يحدثهم عن الصدقة، فيقول: «ما منكم من أحدٍ إلا وسيكلمهُ اللَّهُ يومَ القيامةِ ليس بينَ اللَّه وبينَه ترجمان، ثم ينظر فلا يَرَى شيئاً قُدّامَه، ثم يَنظرُ بينَ يدَيه فتستقبِلهُ النار، فمن استطاعَ منكم أن يَتَّقي النارَ ولو بشقِّ تمرة».[٣]

فهذا الخطاب صالح لكل زمان ومكان، وهو باقٍ ما بقي الحدثان، وهو ﷺ وإن كان يكلم بهذا الحديث أصحابه المؤمنين خاصة، إلا أنه موجه -أيضًا- لكل مؤمن يأتي من بعده، ولذلك قال: «منكم».. وكان من بلاغة الخبر أنه جاء في

١- بغية الإيضاح - ٢/١١٧.

٢- دلائل الإعجاز صـ٣٢٩.

٣- اللؤلؤ والمرجان صـ١٨٠ رقم ٥٩٧.

سياق النفي والاستثناء، فأنزل غير المنكر منزلة المنكر مبالغة في توكيد الخبر، ومراعاة منه ﷺ لمقتضى الحال وما يتطلبه المقام.

وقد يكون هناك من لا يعرف صحة هذا الخبر، أو يعتقد صحته ولكنه لا يعمل به.. فلكل هذه الأحوال هي الدافعة لتلوين الخطاب وبناء التركيب، وتعتمد اعتمادًا مباشرًا على بصيرة المتكلم وفحصه لحال المخاطب؛ ليتلقى الغرض البلاغي من وراء الخبر وهو الإنذار والتحذير.

وقد رسم الحديث الشريف المشهد الحركي بظلاله النفسيّة، «قال ابن هبيرة: نظر اليمين والشمال هنا كالمثل؛ لأن الإنسان من شأنه إذا دهمه أمر أن يلتفت يمينًا وشمالاً يطلب الغوث. قلت: ويحتمل أن يكون سبب الالتفات أنه يترجى أن يجد طريقًا يذهب فيها ليحصل له النجاة من النار؛ فلا يرى إلا ما يفضي به إلى النار».[١]

ومن ذلك الأسلوب الخبري المؤكد بالنفي والاستثناء؛ مراعاة لمقتضى الحال وحاجة المخاطب ما قاله النبي ﷺ في فضل الغرس والزرع: «ما مِنْ مُسلِمٍ يَغرِسُ غَرْساً أو يَزْرَعُ زَرْعاً فيأكُلُ منه طَيْرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلاَّ كان لهُ بهِ صَدَقَةً».[٢] وغرضه الحث والترغيب في عمل الخير المطلق رجاء ما عند الله من ثواب الصدقة، وهذا الأجر المدخر عند الله من الأمور الغيبية.

- وما قاله ﷺ في فضائل عيسى عليه السلام: «ما من بَني آدمَ مولودٌ إلا يَمسُّهُ الشيطانُ حينَ يولد..».[٣] وغرض الخبر المدح والتعظيم والتفخيم من شأن نبي الله عيسى.

١- فتح الباري ٤١٢/١١.

٢- اللؤلؤ والمرجان صـ٣١٥ رقم ١٠٠١.

٣- اللؤلؤ والمرجان صـ٥٠٩ رقم ١٥٢٧.

- وما قاله ﷺ في كفارة المرض: «ما من مُصِيبَةٍ تُصِيبُ المُسْلِمَ إلا كَفَّرَ الله بها عَنْهُ حتى الشَّوكَة يُشَاكُها».[١] وهو أسلوب خبري لغرض الحث على الصبر والتسليم بقضاء الله والرضا بما قدّر طمعًا فيما عنده من أجر وثواب مدخر عند الله تعالى، وهو أمر غيبي.

ثَانيًا: الأُسْلُوبُ الخَبَرِيُّ فِي الحَدِيثِ عَنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ

إن عالم الشهادة عالم محسوس مشاهد بين الناس، يلمسونه ويعاينونه بحواسهم وانفعالاتهم المتجاوبة مع الأحداث المختلفة الممتزجة بأدوات المجتمع، والمتكلم الحصيف البصير بمواقع النفس هو القادر على إثارة العواطف المختلفة في النفس بدرجة قوية، وذلك بما يمتلكه من عاطفة قوية صادقة ولغة مرسلة، من شأنها أن تهز الحواسّ الظاهرة، وتحرك الوجدان وتبعث الإيحاءات والمعاني السامية الروحية، وذلك «أن بين العاطفة والخيال ارتباطًا وثيقًا، فهو الذي يصورها ويبعث مثلها في نفوس القراء والسامعين، وقوته مرتبطة بقوتها، فإذا كانت صادقة قوية أنشأت خيالاً رائعًا، وإذا كانت سقيمة أو مصطنعة كان الخيال هزيلاً سخيفًا؛ فإذا شئنا للأدب قوة وخلودًا عنينا في أنفسنا بتهذيب الشعور وترقيته؛ ليكون إدراكه للحياة صادقًا عميقاً وآثاره رائعة خالدة».[٢]

والحديث النبوي في أعلى درجات البلاغة والبيان لا يضاهيه كلام من بعد كلام الله -تعالى- وقد وقف النبي ﷺ على أغوار المتلقي وخير النفس البشرية وطبائعها، وعرف غرائزها، فساق الأسلوب الخبري؛ ليدفع النفس إلى كمال الإيمان ويرغبها في خصاله الصافية، مشفوعًا بغرض بيان حقيقة الإيمان وإيضاح سماته.. يقول ﷺ :

١- اللؤلؤ والمرجان صـ٥٧٠ رقم ١٦٦٣.

٢- أحمد الشايب – أصول النقد الأدبي – صـ٢٢٢.

- «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمان: أَنْ يَكونَ اللَّهُ ورسولُه أحبَّ إليهِ مِمَّا سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاّ لله، وأنْ يَكرَهَ أَنْ يَعودَ في الكُفرِ كما يكرَهُ أنْ يُقذَفَ في النَّار».(١)
- وقوله ﷺ : «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتى أكونَ أَحَبَّ إليهِ مِنْ والِدِهِ وَوَلَدِهِ والنَّاس أَجْمَعين».(٢)
- وقوله ﷺ : «لا يُؤْمِنُ أَحدُكُمْ حتى يُحِبَّ لأَخِيه ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ».(٣)

فالأساليب الخبرية يدور مع المتلقي وتخاطب طبائعه وميوله، فها هو ذا الأسلوب الخبري في مطلع ذلك الباب الذي مثّل لوحة متكاملة تقوم على التذوق الحسي لحلاوة الإيمان؛ إنها «ليست حلاوة السكر والعسل، وإنما هي حلاوة أعظم من كل حلاوة، حلاوة يجدها الإنسان في قلبه، ولذة عظيمة لا يساويها شيء، يجد انشراحًا في صدره، رغبةً في الخير، حبًّا لأهل الخير، حلاوة لا يعرفها إلا من ذاقها بعد أن حرمها».(٤)

وكانت هذه البداية التي جاءت على سبيل الإجمال، ثم تلاها التفصيل، فكان من شأن ذلك الإطناب أن يُوقِظَ الذهن ويهيِّئَهُ للاستقبال.

بعد ذلك يأتي الصوت اللغوي الخاطف «ثلاث» بهذا المدّ ثم التنوين بالضم مع الحذف.. ثم تأتي الأساليب الخبرية المتوالية لتوجه الحب الفطري إلى مكانه الصحيح؛ ليكون أولاً لله ورسوله، ثم للآخرين بشرط الإخلاص، وجاء بالنفي والاستثناء (لا يحبه إلا لله) لوقوعه لغير الله من البعض.. ثم ينتقل الأسلوب من الحب إلى الحديث عن الكراهية، وهى الصورة البديعية للمقابلة التي تضع

١- اللؤلؤ والمرجان صـ١٨ رقم ٢٦.

٢- اللؤلؤ والمرجان صـ١٨ رقم ٢٧.

٣- اللؤلؤ والمرجان صـ١٨ رقم ٢٨.

٤- النووي – رياض الصالحين بشرح ابن العثيمين – مكتبة الإيمان – المنصورة – ٢٢٦/٢.

الخيال والذهن أمام أمرين متضادين، يواجه كل منهما الآخر في ندية وتجاذب.

والحب والكراهية أمران فطريان، جُبل عليهما الإنسان بطبيعة خلقته، والنبي ﷺ يضع تلك الطبيعة أمامه وهو يحدث السامعين ولا يفصلهم عن فطرتهم، ولكنه يوجهها الوجهة الصحيحة، فيأتي على الفطرة التي جُبل عليها الإنسان في حبه الذي يحتل عنده المقام الأول، فيجمع بين الأصل والفرع وهما جامعان شاملان للحياة الاجتماعية الخاصة، ويسوق الأسلوب الخبري المحقق للإيمان الصادق، الممحص لقوة اليقين والتسليم، فيقول ﷺ : «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتى أكونَ أَحَبَّ...» فبدأ بنفي الإيمان مطلقًا إلى الغاية المرجوة بـ «حتى» المفيدة للغاية؛ للوصول إلى الهدف، وهو الأفضلية بأفعل التفضيل (أَحَبَّ)، فإذا فضل المرء حب نبيه ﷺ على (والِدِهِ وَوَلَدِهِ والنَّاس أَجْمَعين) فقد فاز فوزًا عظيمًا.

ويأتي ختام المشهد الذي يحرّك النفس تجاه الإيثار لا الأثرة بالنفي -أيضًا- (لا يُؤْمِنُ) والغاية: (حتى يُحِبَّ لأَخِيه ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ).

فقد وقفت الأساليب الخبرية في ذلك المشهد مع النفس البشرية ونفذت إلى أعماقها، وعالجت بشريتها، وقامت بالتوجيه التربوي للنفس الإنسانية حتى ترقى وتسمو..

وربما جاء الأسلوب الخبري على سبيل المدح أو الذم، ويدور -أيضًا- حيث دار النفس، فيمدح إيمان أهل اليمن، ويذم قسوة قلوب الفدّادين وغلظتهم، فيقول ﷺ : «الإِيمانُ يَمانٍ هَاهنا، أَلا إِنَّ الْقَسْوَةَ وَغِلَظَ الْقُلُوبِ في الْفَدَّادِينَ، عِنْدَ أُصولِ أَذْنابِ الإِبِلِ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنا الشَّيْطانِ، في رَبيعَةَ وَمُضَرَ».[1]

- وقوله ﷺ : «أَتاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، أَضْعَف قُلوبًا، وَأَرَقُّ أَفْئِدَةً، الْفِقْهُ يَمانٍ،

١- اللؤلؤ والمرجان صـ١٩ رقم ٣١.

وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ».[١]

الإيمانُ يَمان: مبتدأ وخبر، وأصله يمني، بياء النسبة، فحذفوا الياء للتخفيف وعوضوا الألف بدلها، أي: الإيمان منسوب إلى أهل اليمن.[٢] وسبب الثناء على أهل اليمن إسراعهم إلى الإيمان.. والفدّادون هم الرعاة والجمالون وأصحاب الإبل الكثيرة، وقال الخطابي: إنما ذم هؤلاء لاشتغالهم بمعالجة ما هم فيه عن أمور دينهم، وذلك يفضي إلى قساوة القلب.[٣]

وقد أدّى الأسلوب الخبري -فضلاً عن المدح والذم- إلى تحريك الخيال وتنشيط الذهن؛ ليتمثل هذه المقارنة بين فئتين من البشر، فئة الإيمان والرقة القلبية، والأخرى صاحبة الغلظة والقسوة القلبية، لأنها أساليب خبرية يقف بها المتلقي على تلك المعالجة النافذة لطب القلوب ومعالجة الصدور.. فهذه الفئة: إيمان وهم يمان، يمن، رقة في الأفئدة، فقه يمانٍ، حكمة يمانية.. والأخرى تفزعك بمطلعها المخيف: (حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنا الشَّيْطانِ)..

و«قَرْنا الشَّيْطانِ» أي: جانبا رأسه، قال الخطابي: ضرب المثل بقرني الشيطان فيما لا يحمد من الأمور، وقوله: «أَرَقُّ أَفْئِدَةً» أي أن غشاء قلب أحدهم رقيق، وإذا رق الغشاء أسرع نفوذ الشيء إلى ما وراءه.[٤]

ومن الأساليب الخبرية التي دارت حول نوازع النفس الإنسانية وصرفها عن الخبيث وحثها على الحق والتمسك بطريق الهداية، قوله ﷺ: «لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ

١- اللؤلؤ والمرجان صـ١٩ رقم ٣٢.

٢- اللؤلؤ والمرجان صـ١٩.

٣- فتح الباري ٦/٤٠٥.

٤- فتح الباري ٦/٤٠٦.

مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ».[1]

فقد أفاد الخبر ذمًّا ضمنيًّا خفيًّا للحسد على إطلاقه وشمول جنسه؛ كما جاء بـ (لا) النافية للجنس، ثم إثباته في اثنتين، وفي هذا الخفاء في الاثنتين إثارة ذهنية لتشويق النفس وتطلعها لمعرفة هاتين الاثنتين، فيفاجأ المتلقي بأنهما في طريق الخير والرشاد، جمعتا بين الخير التعبدي المعنوي، والعبادة الحسية في إنفاق المال، فشملتا مادتي الدنيا وكون الإنسان المادي والروحي، وقد ظهر ذلك مع الأسلوب البلاغي المعروف بالتوشيع؛ حيث فسَّر الإبهام في الاثنتين بـ: (رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ... وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً ؛ فَهُوَ يُنْفِقُهُ)..

وفي قوله: (آتَاهُ اللهُ) لفت للأذهان لهذا الإتيان.. إنه من الله؛ ليستشعر العباد هاتين النعمتين فيسعى إليهما لينالهما فيعرف حقهما، والتعبير بالفعل المضارع: (يَتْلُوهُ – يُنْفِقُهُ) للدلالة على الاستمرار والدوام الذي لا يفتر عنه صاحبه، وقد عضده بقوله: (آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ) عند ذكره للاثنتين، لشمول تلك التلاوة وهذا الإنفاق عامة حياة المؤمن، لا وقت دون وقت أو في المناسبات والمواسم، ولكنه الدوام والاستمرار فتحدث الغبطة التي عبّر عنها بالحسد، وهي من المشاكلة اللفظية..

وتأتي الأساليب الخبرية المتوالية في الحديث النبوي، فتُخرج مكنون هذا وترسمه من داخل نفسه وأعماقه، وتصور حركة ذاك وتجسمها في مشهد حيّ مشخّص بارز للعيان بغرض التحذير من سلوك اجتماعي معين وذمه، والترغيب في سلوك آخر ومدح صاحبه، يقول ﷺ : «لاَ يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ. يَلْتَقِيَانِ، فَيُعْرِضُ هذَا، وَيُعْرِضُ هذَا. وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ

١- اللؤلؤ والمرجان صـ١٣٧ رقم ٤٦٦.

بِالسَّلاَمِ».[١]

«لاَ يَحِلُّ» فهذا النفي الداخل على الجملة الفعلية لخير دليل على دوام حرمة الهجر بين المسلمين أكثر من ثلاث ليال.. وإذا تأمل الإسناد الخبري الوارد في هذا الحديث الشريف كشف عن معالجة النفس البشرية بما يناسب طبائعها وانفعالاتها، فالنفس تكون في أوج تقلباتها الانفعالية في دائرة هذه الثلاث، ثم لا تلبث جذوة الغضب أن تنطفئ وتخمد شرارتها بعد أن تخمد تلك الفورة أن تصيب الدماء، قال العلماء: «وإنما عفا عنها في الثلاث؛ لأن الآدمي مجبول على الغضب وسوء الخلق ونحو ذلك؛ فعفا عن الهجرة في الثلاثة ليذهب ذلك العارض».[٢]

ثم يأتي مشهد اللقاء والإعراض، إنه مشهد مستأنف جديد، كما صوره الخبر الوارد في الجملة الفعلية بعد إطلاق الحكم السابق: (يَلْتَقِيَانِ) وهو يلقي بظلال المفاجأة وطلعة اللقاء، وإلا لتحاشاه الطرفان.. فنرى شخص هذا وقد قام بالإعراض، بأن أعطاه عرضه، أي: جانبه، نبذًا له ومجافاة وتولية، ونرى نفس الأداء من الآخر في حركة تلقائية تتزامن مع ردة فعل أخيه.

إن براعة التصوير هنا تكمن في الأداء الغنى المتكامل الذي حرّك النفس مع حركات المشهد المتتابعة والمتنقلة من اللقاء إلى الإعراض؛ إنها حتمية الأداء التي تركت لخيال المتلقي مجالاً كيما يعمل ويعمل حتى شخصية الذي بدأ بالسلام وهى تمتاز بالخير، فضلاً عما تميَّزت به من تحكّم في هوى النفس، فقد «كان المبتدئ خيرًا من حيث إنه مبتدئ يترك ما كرهه الشارع من التقاطع، لا

١- اللؤلؤ والمرجان صـ٥٦٨ رقم ١٦٥٩.

٢- اللؤلؤ والمرجان صـ٥٦٨.

من حيث إنه يسلّم».[١]

وطبيعة سياق الكلام وما ورد فيها من أساليب خبرية سابقة، إنما تأتي في إطار نفسي يتولد لدى المتلقي، وينمي بداخله حالة من الشعور ليكون أجدر بالفرار من الإعراض، وأليق بالملاذ برضوان الله إذا هو غلب نفسه وبدأ بالسلام، «ذلك أن الأعمال الفنية لا يتحتم أن تكون على الدّوام تعبيرًا عن شعور مباشر لدى صاحبها، وإنما يصحّ أن تأتي وهى مستقلة استقلالاً تامًّا عن حالاته النفسية، وقد تكون منفصلة بالمرة عن اتجاهاته الباطنة».[٢]

وإذا نظرنا إلى مثل الصيغة السابقة: (لاَ يَحِلُّ) في سياق آخر من الأساليب الخبرية، لرأينا مشهدنا مغايرًا للمشهد السابق في حركاته وتوجيهاته النفسية وبعثه الشعوري.. قال ﷺ في بنت حمزة: «لاَ تَحِلُّ لِي، يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ، هِيَ بِنْتُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ».[٣]

فهذا أسلوب خبري مباشر، جاء لتقرير حكم شرعي، وهو إثبات الحرمة من الرضاع كحرمتها من النسب، ولم يتطلب المقام مخاطبة الخيال أو إثارة لعاطفة بعينها.. ومثل ذلك ما ورد من أساليب خبرية تقريرية تثبت حكمًا شرعيًّا، أو تدعو لفضيلة ما كقوله ﷺ : «يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى الْمَاشِي، وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ».[٤]

وقوله ﷺ : «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلاَمِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ،

١- اللؤلؤ والمرجان صـ٥٦٨.

٢- عبد الفتاح الديدي – الخيال الحركي في الأدب النقدي (ط١) – دار المعرفة القاهرة – ١٩٦٥ – صـ٣٩.

٣- اللؤلؤ والمرجان صـ٢٨٢ رقم ٩١٩.

٤- اللؤلؤ والمرجان صـ٤٦١ رقم ١٣٩٦.

وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ».[١]

وهي إذا كانت أخباراً تقرّر حكمًا وتوضح فضيلة، إلا أنها تعمل على تنظيم العلاقات الاجتماعية وتهذيب السلوك، فترقى بالمعاملات وتسمو بالنفوس، فتشيع المودة وتذوب الفرقة.

ونستشعر مشهدًا آخر مفعمًا بالغضب، زاخرًا بالنذير والوعيد، وذلك بما بثه الأسلوب الخبري الوارد في قوله ﷺ:[٢] «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قَالَ: ثم قَرَأَ: [وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ].

فالإسناد الخبري صور مشهد الإمهال والتأخير (لَيُمْلِي) ثم صوره في انقلاب فجائي عنيف وتحول غاضب قهر الظالم وقسمه دون هوادة (حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ)..

فنستشعر صوت النذير وصيحة الغضب وقوة النبرات الموجهة، وكأنها سهام نافذة إلى صدر الظالم، وقد جاء التركيب الأسلوب بالتأكيد بـ [إن – اللام] فهو –أي: الظالم– ينكر هذا المصير حالاً ومآلاً، قولاً وفعالاً، فجاءه التهديد والوعيد؛ ليحذر كل ظالم مصير الأخذ وعدم الإفلات..

وفي أسلوب خبري آخر يحذر الظالمين ويتهددهم، يقول النبي ﷺ : «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ».[٣]

فهي كلمات موجزة ولكنها نافذة التصوير، بالغة الأثر في تصوير الظلم، وقد

١- اللؤلؤ والمرجان صـ٤٦١ رقم ١٣٩٧.

٢- اللؤلؤ والمرجان صـ٥٧٢ رقم ١٦٦٨.

٣- اللؤلؤ والمرجان صـ٥٧١ رقم ١٦٦٦.

تحول إلى ظلام يمشي فيه الظالم يوم القيامة، وهو تحول سريع سرعة فناء الدنيا، وقد صورته الكلمات بتلاحقها السريع وإيقاع الجناس بين: [الظلم – الظلمات].. قال القاضي: «قيل هو على ظاهره، فيكون ظلمات على صاحبه لا يهتدي يوم القيامة سبيلاً حتى يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم، ويحتمل أن الظلمات هنا الشدائد».[1]

ثالثاً: الأُسْلُوبُ الخَبَرِيُّ فِي أَحَادِيثِ الإِعْجَازِ وَالمُعْجِزَاتِ

إن إبداع السنة النبوية الشريفة لا يضاهيه من إبداع البشر إبداع، فهو ﷺ إن نطق فلا ينطق عن الهوى، وإذا أخبر فلا مكذّب لصدقه، ولا رادّ لخبره المؤيد بوحي السماء..

وقد نالت الأحاديث النبوية فيضًا غزيرًا من الأخبار المعجزة التي تلقاها صحابته، ويتلقاها كل مؤمن مصدّق بالتسليم والتصديق وحسن الاعتقاد، وهي كرامة ربه ودليل صدقه ﷺ التي يراها كل مسلم بقلبه وجنانه قبل أن يراها بعينه أو يلمسها بيده، وهي التي دارت مع الأيام دورتها مع الزمان ليرى غير المسلمين كلمات الإعجاز النبوي ماثلة بين أيديهم تنطق بالحق المبين في معاملهم وخلاصة بحوثهم التي أجروها على الأجنّة والأطعمة والأشربة وفي الطب الوقائي وغير ذلك.

وسوف نقف –بإذن الله تعالى– مع بعض هذه الأحاديث النبوية التي وردت بالأساليب الخبرية حاملة الإعجاز في طياتها، فمن ذلك قوله ﷺ : «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ؛ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ» فهذا الأسلوب الخبري الذي جاء لغرض التحذير من الغضب وتصحيح الأفكار، قد بدأ بنفي ما هو

١- اللؤلؤ والمرجان صـ٥٧١.

سائد ومسيطر على الأذهان بأن الشديد بالصرعة، وهو بضم الصاد وفتح الراء «الذي يصرع الناس كثيرًا بقوته، والهاء للمبالغة في الصفة؛ والصرعة بسكون الراء بالعكس، وهو من يصرعه غيره كثيرًا».[١]

وكان هذا الأسلوب الخبري لازمًا في البداية لإزالة الخطأ الراسخ في الأذهان، وبعد تفريغ الذهن من الخطأ أصبح مهيَّئًا لاستقبال الحق والصواب، فجاء الأسلوب الخبري الثاني في تلاحق وسرعة بـ (إنما) وتصوير النفس بشيء مادي يُملك ويقبض عليه في تحكم «والصرع هو الطرح على الأرض، فنُقل إلى الذي يملك نفسه عند الغضب؛ فإنه إذا ملكها كان قد قهر أقوى أعدائه وأشرّ خصُومة، وهذا من الألفاظ التي نقلت عن موضوعها اللغوي لضرب من التوسع والمجاز، وهو من فصيح الكلام، قاله القسطلاني».[٢]

وقد تبيَّن أنّ التحكم في النّفس حينما تثور ثورة الغضب، لا يستطيعه إلا من مرّن نفسه على امتلاكها، وذلك بترسيخ قوى الإيمان في نفسه وتوطينها على الحلم والهدوء والاتزان..

وقد «ثبت علمياً أن الغضب كصورة من صور الانفعال النفسي يؤثر على قلب الشخص تأثير العَدْو (الجري) على القلب، وانفعال الغضب يزيد من عدد مرات انقباضه في الدقيقة الواحدة..

لوحظ أن الإنسان الذي اعتاد على الغضب يُصاب بارتفاع ضغط الدم كما أن الشرايين الدقيقة تتصلب، وتفقد مرونتها وقدرتها على الاتساع..

اعتقد العلماء في الماضي أن الغضب الصريح ليس له أضرار، وأن الغضب

١- فتح الباري ١٠/٥٣٥.

٢- اللؤلؤ والمرجان صـ٥٧٦.

المكبوت فقط هو المسئول عن كثير من الأمراض؛ ولكن دراسة أمريكية حديثة قدمت تفسيرًا جديدًا لتأثير هذين النوعين من الغضب، وخلاصته أن الغضب المكبوت والغضب الصريح يؤديان إلى الأضرار الصحية نفسها وإن اختلفت حدتها..

أكدت الأبحاث العلمية أن الغضب وتكراره يُقلّل من عمر الإنسان».[١]

ولهذا تبينت الحكمة من التحذير من الغضب، والدعوة إلى نبذه وعدم الاستسلام لشره، ولا عجب فقد «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فقال: أوصني، قال: لا تغضب، فردد مرارًا، فقال: لا تغضب».[٢]

وفي هذا بصر نافذ من المتكلم النبي ﷺ بنفوس متلقيه وعلمه بطبيعة أحوالهم وما جُبلوا عليه من سرعة الغضب الذي كثيرًا ما أشعل الحرب الضروس ولم تخمدها إلا بعد أن خمدت أرواح أزاهير القبائل!!.

- ويقول ﷺ : «لاَ يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ».[٣]

وهذا أسلوب خبري مؤكد، «وهو خبر بمعنى النهى بدليل رواية الباب، والممرض هو الذي له إبل مرضى، والمصح من له إبل صحاح، نهى صاحب الإبل المريضة أن يوردها على الإبل الصحيحة».[٤]

وسوق النهي في صورة الخبر دلالة على رغبة المتكلم ﷺ في التوكيد على

١- د. أحمد مصطفى متولى – الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية – ط١ – دار ابن الجوزي – القاهرة – ٢٠٠٥ – صـ٩٣٤-٩٣٥.

٢- رواه البخاري ٤٣١/١٠

٣- اللؤلؤ والمرجان صـ٤٧٥ رقم ١٤٣٦

٤- فتح الباري ٢٥٢/١٠

السامعين حتى لا يتهاونوا أو يفرطوا في ذلك، وقد يكون منهم من لا علم له بهذا الأمر.

وهذا ثابت في الطب الحديثة، وهو من الحقائق الطبية المعمول بها في الحجر الصحي لإثبات العلم الحديث أن اختلاط الصحيح بالمريض يكون سببًا مباشرًا لانتقال العدوى.

ومن هذه الأساليب الخبرية التي مثلت الإعجاز العلمي في التداوي، قوله ﷺ: «فِي الْحَبَّةِ السَّوْدَاءِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلاَّ السَّامَ».[١]

هذا الأسلوب الخبري جاء في سياق التقديم والتأخير؛ لإثارة الذهن ولفت الانتباه إلي المقدّم، والتشويق إلى المؤخّر الذي جاء بالتنكير التفخيمي (شفاء)، ثم الشمول بكلمة (كل) واستثناء السام (الموت) من ذلك الشمول.. والخبر للبيان وتوضيح السر الإلهي الخفي في تلك الحبة التي يجهلها الناس، ويحمل الخبر في طياته -أيضًا- النصح والإرشاد، وهو يخاطب به من يؤمن ويعتقد في نبيه وصدقه، ولذلك لم يحتج النبي ﷺ إلى توكيدات..

وقد كثر الكلام حول هذا الحديث، فقال الخطابي: (مِنْ كُلِّ دَاءٍ) هو من العام الذي يراد به الخاص، وحمله أبو بكر بن العربي على الأكثر الأغلب في الشفاء، وقال غيره: كان النبي ﷺ يصف الدواء بحسب ما يشاهده من حال المريض.[٢]

والحق -والله أعلم- أنه على عمومه وإطلاقه كما هو ظاهر متبادر في الإسناد الخبري في الحديث، ولا وجه للتخصيص الذي لا دليل عليه، وقد فاضت الأبحاث العلمية والدراسات الطبية التي سجلت حالات الشفاء في أمراض

١- اللؤلؤ والمرجان صـ٤٧٢ رقم ١٤٣٠

٢- فتح الباري ١٥٢/١٠.

ميئوس منها..

وقد نُشرت دراسة في بريطانيا تحدثت عن خصائص زيت الحبة السوداء الطيّار المضاد لآلام المفاصل والروماتيزم، وقد أثبت الباحثون في الولايات المتحدة أن حبة البركة تنشط جهاز المناعة عند الإنسان، وفي إحدى المجلات العالمية دراسة لإثبات دور الحبة السوداء في أمراض الحساسية، وقدرتها على خفض سكر الدم عند الأرانب.[١]

ولعل ابن حجر قد أصاب عندما قال بعد ذكره لأقوال العلماء: وقد تقدم حمله على عمومه بأن يكون المراد بذلك ما هو أعم من الإفراد والتركيب.[٢]

ومن الأساليب الخبرية في غرض التحذير قوله ﷺ : «لاَ يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ الَّذِي لاَ يَجْرِي ثُمَّ يَغْتَسِلُ فِيهِ».[٣]

فهذا التحذير من باب الطب الوقائي الذي يحذر من إجراء النجاسة بما فيها من نقل للأمراض في الماء الدائم أي: الراكد، وفي وصفه ﷺ بـ (الَّذِي لاَ يَجْرِي) مزيد من التأكيد والتوضيح لإلزام الحذر والامتناع عن ذلك على سبيل القطع والجزم الذي لا تهاون فيه.

وها هو ذا ﷺ قد بدأ الإسناد الخبري بالجملة الفعلية المنفية، وهي في حقيقة معناها النهى، وهذا أبلغ في التأكيد، فكان من عادة العرب أنها إذا أرادت المبالغة في النهي لجأت إلى الخبر المنفي، ومثاله في القرآن في مواضع كثيرة، كما سبق الإشارة إلى بعضها، وفي هذا التحذير النبوي حقيقة طبية مؤداها أنه

١- الموسوعة الذهبية صـ١٠٦٦-١٠٦٧ بتصرف يسير.

٢- فتح الباري ١٥٢/١٠.

٣- اللؤلؤ والمرجان صـ٦١ رقم ١٦١.

«يعتبر الماء الراكد جوًّا ملائمًا لنمو الكثير من البكتريا كالكوليرا والسالمونيلا والشيجلا وغير ذلك، كما تحتاج بعض الطفيليات الأولية والديدان إلى الماء لإكمال دورة حياتها خارج جسم الإنسان، ويساعد التبول والتبرز على نمو هذه الطفيليات والديدان وسرعة تكاثرها وانتشارها».[١]

ومن الأساليب الخبرية الواردة للتفاؤل والبشارة بالنصر وقربه قوله ﷺ: «هَلَكَ كِسْرَى، ثُمَّ لاَ يَكُونُ كِسْرَى بَعْدَهُ وَقَيْصَرٌ لَيَهْلِكَنَّ، ثُمَّ لاَ يَكُونُ قَيْصَرٌ بَعْدَهُ وَلَتُقْسَمَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللهِ».[٢]

وهذه الأساليب الخبرية لهى من أوضح علامات النبوة، ومن دلائل صدقه ﷺ، فهو لا ينطق عن الهوى، فقد بدأ الكلام بالفعل الماضي: (هَلَكَ) للدلالة على اليقين والتحقق، مع أنه لم يهلك هذا ولا ذاك في زمن النبي ﷺ ثم أيّد قوله الجازم القاطع بالتوكيد المكرر باللام والنون الثقيلة في: [لَيَهْلِكَنَّ – لَتُقْسَمَنَّ]، وقد أوضح تمام اليقين وقوة التحقيق بالجزم في عدم نهوض ملك هذا ولا ذاك بعد ذلك إلى الأبد..

وقد راعى المتكلم ﷺ حالة المتلقي –رضوان الله عليهم– حين استقبال هذه الأخبار النبوية؛ فهي من المعجزات النبوية التي ينتظر ظهورها مُن ينتظرها، وقد بدأها بالفعل الماضي المجرد من التوكيد أن هذا الأمر واقع لا محالة، وكأنه يأخذ بالأبصار ليضعها على رؤية الهلاك الحقيقي الفعلي وقت المخاطبة والكلام، ثم بعد أن هيّأ النفس لاستقبال هذه البشرى أتى بالتوكيدات اللازمة لتعدد الأخبار.

ومنذ القدم إلى اليوم يقف المتلقي مسلّمًا مستسلمًا أمام خبر النبي ﷺ الوارد

١- الموسوعة الذهبية صـ١٠٤٧.

٢- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٦٢ رقم ١٨٤٧.

في حديثه الشريف يقول: «مَنْ تَصَبَّحَ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً لَمْ يَضُرُّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، سُمٌّ وَلاَ سِحْرٌ».[١]

فهذا الإسناد الخبري للترغيب في التداوي بعجوة المدينة، وبيان فضل تمرها، وقد جاء الأسلوب على الشرط، وفيه تعلق الجواب (لَمْ يَضُرُّهُ..) على الشرط المتقدم، ففيه الترغيب والحث؛ بخلاف ما لو أتى الأسلوب بسوق الخبر المباشر، فيعطي جوًّا من الجفاف في هذا المقام، وهذا الأسلوب في هذا المقام ونوعية العرض الدوائي النبوي من شأنه أن يسمو بمشاعر المتلقين ويخرجهم من قيد اللحظة الحاضرة، ويحلق بهم فيما وراء الحدث بانفعاله إلى انفعالات ومشاعر أخرى أسمى وأرق.

قال النووي: «وتخصيص عجوة المدينة دون غيرها وعدد السبع من الأمور التي عَلِمَها الشّارعُ ولا نعلم نحن حكمتها، فيجب الإيمان بها واعتقاد فضلها والحكمة فيها، وهذا كأعداد الصلوات ونصب الزكاة وغيرها».[٢]

وربما جاء الخبر مفحمًا لمتلقيه، ضاربًا بسهم الإعجاز في مآقيه من المكذبين والمعاندين، فها هي قريش تكذب النبي ﷺ في حديثه عن الإسراء والمعراج؛ فطفق يخبرهم عن آيات بيت المقدس يقول ﷺ : «لمّا كذّبتْني قريشٌ، قمتُ في الحِجْر، فَجَلا الله لي بيتَ المقدسِ، فَطَفِقْتُ أخبرهم عن آياته وأنَا أنظرُ إليه».[٣]

فتتجلّى آيات الإعجاز في المواجهة السريعة للتكذيب.. فقوله ﷺ : (لمّا) الحينية، أي: عندما منهم التكذيب، كان الرد الفوري المفحم (قمتُ)، لأن هذا

١- اللؤلؤ والمرجان صـ٤٣٨ رقم ١٣٢٧.

٢- اللؤلؤ والمرجان صـ٤٣٨.

٣- اللؤلؤ والمرجان صـ٤٣ رقم ١٠٩.

موطن الإعجاز الخارج عن البشرية وقدرته المحدودة، (فَجَلا الله).. (فَطَفِقْتُ... وأنَا أنظرُ) لأن هذه الأخبار مؤيدة من السماء فهي عين اليقين التي من شأنها أن تُسكت المكذّب وتخرصه، ومن شأنها -أيضًا- أن تثبت المتلقي المسلم، لأن «الإيمان بالمعجزة دليل على الإيمان بالله تعالى وقدرته وأنه -سبحانه- لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، والمعجزة نفحة من نفحات الحق -سبحانه- يجريها على أحد أنبيائه وليست من صنع النبي، وإنما هي من صنع الله».[١]

ونحو ذلك قوله ﷺ : «إنَّ هذا أتاني وأنا نائم، فاخترَطَ سيفي، فاستيقَظْتُ وهو قائمٌ على رأسي مخترطٌ صلتاً، قال: من يَمنعُكَ مني؟ قلت: الله. فشامَه ثمَّ قعد، فهو هذا».[٢]

فهذه البداية بالتوكيد بـ (إنَّ) ترسم صورة الحوار بين النبي ﷺ وبين أصحابه.. فقد دعاهم ﷺ بعدما نزل كل واحد منهم في ظل شجرة وقت القيلولة في غزوة نجد، فجاءوا ليجدوا هذا الأعرابي قاعداً بين يدي النبي ﷺ، فهذه الدعوة المفاجئة وقد أتوا ليجدوا هذا المشهد للأعرابي، قد جسّدت حالة الاستغراب أو الدهشة حال سعيهم إليه، فكأنهم يسألون أو سألوا؛ فكان الجواب: إن...

وقد جسّدت الجمل الخبريّة أجزاء المشهد في قوّة ووضوح، وهي أجزاء تكمل بعضها بعضًا حتى تكوّن مشهدًا قصصيًّا متكاملاً بداية من رسم مشهد نومه ﷺ وقد أتاه الأعرابي.. فإذا نظرنا إلى الخبر الأول هو: الإتيان: [إنَّ هذا

١- ابن كثير - صحيح معجزات النبي ﷺ - تحقيق محمد عيسى - ط١ - دار الغد الجديد- القاهرة - ٢٠٠٧ - صـ١١.

٢- اللؤلؤ والمرجان صـ٤٩١ رقم ١٤٧٠.

أتاني].. والحالة: [وأنا نائم] جملة خبرية حالية برابط الحال: الواو، ثم الخبر الثالث الذي رسم مشهد السرعة والهجوم: [فاخترَطَ سيفي].. بالفعل الماضي والفاء، أي: سلّه في سرعة وقوة استعداداً للقتل،، وقد قام الإسناد الخبري يرسم الصورة المتمكنة: [وهو قائمٌ على رأسي.. مخترطٌ صلتاً] أي: السيف موجه إلى رأسه الشريف.. صلتا: (مجرّدًا من غمده)، ثم بدا مشهد الغرور وخدعة التمكّن: [قال: من يَمنعُكَ مني؟.. قلت: الله..] أي: الله يمنعني منك.. جملة خبرية اشتملت على الإيجاز والحذف، ودلّت بجلاء تام على الثبات وصدق النبوة وهذا المشهد الذي ارتسمت فيه الحركة بقوتها وعنفها، نراه ينتهي بهزيمة المغرور المنتشي؛ ليتحول عن قلعته إلى حضيضه، من الكبر إلى الذل.. إلى مشهد حركي آخر يناقض سابقه عندما (اخترط السيف) إلى إغماده (فشامه).. ثم قعد.. فهو هذا؛ ليكون خاتمة المشهد الذي بدأ بقوله ﷺ : إن هذا..

وفي هذا التفصيل الخبري لوقائع المشهد ليسوق غرض بيان أمارة النبوة وعصمة الله تعالى لنبيه ﷺ.. وتفصيل الواقعة جزئيًّا يخاطب خيال المتلقين ويحرّك عاطفة الإيمان واليقين، فيطلع المتلقي على هذا المشهد الحي وكأنه ماثل أمام عينيه يشارك في أحداثه بمشاعره وعاطفته، لا أن يكون مجرد مستمع بأذنيه، وهذا من إعجاز العيان الذي أظهره الله تعالى لنبيه ﷺ من أعلام نبوته؛ لينضم مع إعجاز القرآن.. فمن معجزاته ﷺ : «عصمته من أعدائه وهم الجم الغفير والعدد الكثير، وهم أتم حنق عليه وأشد طلب لنفسه وهو بينهم مسترسل قاهر ولهم مخالط ومكاثر ترمقه أبصارهم شزرًا، وترتد عنه أيديهم ذعرًا، وقد هاجر عنه أصحابه حذرًا حتى استكمل مدته فيهم ثلاث عشرة سنة، ثم خرج عنهم سليمًا لم يكلم في نفس ولا جسد، وما كان ذاك إلا بعصمة إلهية وعده الله تعالى فحققها حيث يقول: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. (المائدة ٦٧) فعصمه

منهم.[١]

ونختم هذه الوقفة بحديث للنبي ﷺ اشتمل على عدة أساليب خبرية لتقرير حقيقة علمية وتوضيحها في إعجاز نبوي بليغ عن خلق الآدمي في بطن أمه، يقول ﷺ : «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ..».[٢]

فبدأ ﷺ هذه الأساليب الخبرية بـ (إنَّ) للتأكيد، وكأن هناك من سأل عن خلق الآدمي في بطن أمه؛ فجاءه الجواب، وهي بلاغة وقوة إدراك لتطويع المتلقي المشاركة في الحديث، وإن لم يتكلم، فيكون أدعى للانتباه وأبعد عن الشرود، خاصة أن الأسانيد الخبرية قد سيقت في أمر لم يسمعوا عنه من قبل، بل جاءتهم تلك الأخبار بالتحديد الدقيق باليوم واسم كل حالة يمر بها الآدمي في بطن أمه.. وإذا كانت هذه الرواية للحديث السابق هي رواية الإمام البخاري، فإن رواية الإمام مسلم جاءت ببعض الاختلاف في الأساليب الخبرية التي أزالت لبسًا في المدلول.. فقد روى الإمام مسلم بسنده عن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُجْمعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذلك عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذلك مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يرسل الملك فينفخ فيه الروح، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ..».

والحديث بهذا اللفظ للإمام مسلم يختلف عن حديث الإمام البخاري في زيادة

١- أبو الحسن الماوردي – أعلام النبوة – تحقيق/ عبد الرحمن حسن – مكتبة الآداب – القاهرة – ١٩٨٧ – صـ٩٠.

٢- اللؤلؤ والمرجان صـ٥٨٣ رقم ١٦٩٥.

عبارة (في ذلك) التي صححت الفهم وأظهرت التطابق التام مع حقائق علم الأجنة الحديث، وأزالت شبه التعارض بين الحقائق العلمية المعتمدة في علم الأجنة الحديث وبين رواية البخاري التي فهم منها بعض العلماء أن نفخ الروح بعد مائة وعشرين يومًا.. فبالجمع بين الروايتين وبناء على رواية مسلم يكون خلق الجنين يجمع خلال الأربعين يومًا الأولى من عمره، وأطوار النطفة والعلقة والمضغة تقع وتكتمل كلها في خلال هذه الأربعين؛ لأن لفظ (في ذلك) يعود إلى الوقت، أي: إلى الأربعين يومًا، أما اسم الإشارة في قوله: (مثل ذلك) فلابد أنه يعود إلى شيء آخر غير الوقت، وأقرب شيء إليه هنا هو جمع الخلق، والمعنى: إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُجْمعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ في ذلك (أي: في ذلك العدد من الأيام) عَلَقَةً (مجتمعة في خلقها) مِثْلَ ذَلِكَ (أي: مثلما اجتمع خلقكم في الأربعين يومًا) ثُمَّ يَكُونُ في ذلك (أي: في نفس الأربعين يومًا) مُضْغَةً (مجتمعة مكتملة الخلق المقدر لها) مِثْلَ ذَلِكَ (أي مثلما اجتمع خلقكم في الأربعين يوماً) وذلك من ترتيب الإخبار عن أطوار الجنين لا من ترتيب المخبر به، وهو ما توصل إليه ابن الزملكاني في كتابه: البرهان في إعجاز القرآن في القرن السابع الهجري، واستنتج من ذلك أن النطفة والعلقة والمضغة تتم وتكتمل خلال الأربعين يومًا الأولى.[1]

رَابعاً: الأُسْلُوبُ الخَبَرِيُّ وَاللُّغَةُ

إن توظيف اللغة داخل السياق يساهم بشكل كبير في إيضاح المعنى وإبراز الغرض الذي من أجله تشكل الأسلوب، فمن بلاغة المتكلم وحصافته «أن يهيئ للألفاظ نظامًا ونسقًا وجوًّا يسمح لها بأن تشع أكبر شحنتها من الصور والظلال والإيقاع، وأن تتناسق ظلالها وإيقاعاتها مع الجو الشعوري الذي تريد أن

١- من مقال للدكتور/ عبد الجواد الصاوي بعنوان أطوار الجنين ونفخ الروح . موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، والعدد الثامن من مجلة الإعجاز العلمي.

ترسمه، وألا يقف بها عند الدلالة المعنوية الذهنية، وألا يقيم اختياره للألفاظ على هذا الأساس وحده، وإن يكن لابد منه في التعبير؛ ليفهم الآخرون ما يريده، وأن يرد إلى اللفظ تلك الحياة التي كانت له وهو يطلق أول مرة ليصور حالة حية، قبل أن يصير له معنى ذهني مجرد».[١]

والألفاظ تقع في النفس موقع الحسن والقبح في القلب، فتكون الكلمات المختارة والألفاظ المنتقاة رسول المتكلم إلى روع المتلقي، فتستطيع بما تحمله من دفقات شعورية أن تحمل المتلقي على الانفعال بالغضب أو الفرح أو الحماس أو ما يريده المتكلم من تأثير، فإن الألفاظ «إذا نظمت ورتبت ذلك الترتيب المعين، سرت فيها الحياة وعبرت عن مكنون الفكر وما يدور في الأذهان؛ وليست اللغة في حقيقة أمرها إلا نظامًا من الكلمات التي ارتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا، تحتمه قوانين معينة لكل لغة».[٢]

والكلمة قد تأتي في العبارة لتصور مشهدًا أو تجسم أمرًا معنويًّا يأخذ بلُبِّ المتلقي أبد الحياة، فيقول النبي ﷺ: «ما مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعاهُ اللهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحُطْها بِنَصيحَةٍ؛ إلاَّ لَمْ يَجِدْ رائِحَةَ الْجَنَّةِ».[٣]

فهذا الأسلوب الخبري قد جاء للتهديد والوعيد، وقد ساهمت الكلمات المختارة في تعميق هذا المعنى من أمانة الرعية. فيصور هذا الأمين المستأمن على أمانة ما بالراعي الذي يراقب رعيته ليحفظها من موارد الهلاك، وقد زادت الصورة حركة وبروزًا بالتعبير بكلمة (يَحُطْها)، فهي تصور هذا الراعي الأمين وهو يحوط إحاطة برعيته شفقة وخوفًا عليها، وأدى التنكير في: (عبد – نصيحة) إلى

١- سيد قطب – النقد الأدبي . أصوله ومناهجه – ط٦ – دار الشروق – القاهرة – ١٩٩٠ – صـ٣٩.

٢- د. إبراهيم أنيس – من أسرار اللغة – ط٦ – الأنجلو المصرية – القاهرة – ١٩٧٨ – صـ٢٩٥.

٣- اللؤلؤ والمرجان صـ٣٣ رقم ٨٦.

إظهار العموم والشمول، واختار ﷺ النفي والاستثناء لتأكيد هذا المعنى وتثبيته وإبراز خطورة ذلك الأمر والتفريط فيه.

ومن تلك الكلمات المصورة العبرة عن حقيقة المشهد، قوله ﷺ : «يُجاءُ بالرجُل يوم القيامة، فيُلقى في النار، فَتندَلقُ أقتابهُ في النا، فيدورُ كما يدور الحِمارُ بَرحاهُ، فيجتمعُ أهلُ النار عليه، فيقولونَ: أي فُلانُ، ما شأنكَ؟ أليسَ كنتَ تأمُرُنا بالمعروفِ وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنتُ آمرُكم بالمعروفِ ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه».[1]

فهذا مشهد حيّ، صورته الكلمات ورسمته تراكيب الإسناد الخبري في قوة أخّاذة بالنفس لبث التحذير والإنذار لمن يفعل ذلك.. وها هي ذي الكلمات تدور مع ذلك المنافق دورته التي يشبه فيها الحمار وهو يدور برحاه.. وقد مثّلت الكلمات مشهد مجيئه الممقوت وحركة القذف والإلقاء، وذلك بتصوير المشهد بمجيئه المبني للمجهول: (يُجاءُ) ثم تحول المشهد لحركته العنيفة في الإلقاء بالبناء للمجهول –أيضًا– (فيُلقى) والتعبير بالفاء رسم هذا التحول المفاجئ والسريع من المجيء إلى الإلقاء..

أما المشهد الآخر السريع والممتزج بالعنف والشدة، فقد صورته حركة اندلاق الأقتاب وهو يدور بها، وذلك أيضاً بالفاء التصويرية في قوله ﷺ : «فَتندَلقُ أقتابهُ في النار». أي: فتخرج أمعاؤه من دبره، وقد «اختير له صنف من أصناف العذاب يجمع عليه الناس لما يرون به من البلاء، ويعجبون من وجوده بينهم، وكان في الدنيا ينهاهم عن المنكر ويحببهم في المعروف، وليس له

١- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٧٦ رقم ١٨٨٢.

شغل الآن غير أن يجمع أمعاؤه ويدور معها».[١]

وربما جاءت الكلمة المختارة لترسم مشهد الخسف لرجل جاء يمشي متبخترًا معجبًا بنفسه، فإذا به قد خُسِفَ به، يقول ﷺ : «بَينما رجلُ يَمشي في حُلّةٍ تُعجِبه نفسه، مُرجِّلٌ جُمَّته، إذ خَسَفَ الله به؛ فهو يَتجلْجَل إلى يوم القيامة».[٢]

فرسمت الكلمات تلك الشخصية رسمًا ظاهرًا وباطنًا، فالظاهر حسن، والباطن حقير كما دل التنكير في كلمة (رجل).. ثم جاءت الكلمات متوالية لترسم حركة المشي.. حُلّة.. تعجبه نفسه.. مُرجِّل جُمته.. فيتخيل المتلقي هذه الشخصية في ثياب من الإزاز والرداء؛ لأنها حُلّة كاملة، وهو يتعاظم ويتكبر في مشيته، ويتباهى بنفسه (تعجبه نفسه) له شعر كثيف يتدلى إلى منكبيه، وقد رجّله ومشطه (مُرجِّل جُمته).. وبينما هو على هذه الحال من الفخر والتيه والعجب، فيؤخذ على غرّة، فلا يفيق من هول المفاجأة، كما رسمته (إذ)..

ويأتي الأسلوب الخبري حاملاً المشهد الحركي في اضطراب عنيف : (يَتجلْجَل) وهي حركة الاندفاع في شقوق الأرض، وما يصاحبها من مشهد صوتي يصخ الآذان.

فالكلمات لها جرْسٌ هادئ في الأساليب الخبرية في المشهد الأول من الحديث، ثم تتحول إلى الإيقاع السريع في حركته والصاخب في صوته من جرّاء الخسف والتجلجل.. فالألفاظ تحيل السامع إلى جو المشهد وأرض المعاينة، وتبث في روعه مشاعر الخوف والحذر من نفس المصير، إذا سلك نفس الطريق..

١- د. أحمد عبد الله العلي – مشاهد القيامة في الحديث النبوي – ط٢ – دار الوفاء – المنصورة – ١٩٩٢ – صـ٢١٨.

٢- اللؤلؤ والمرجان صـ٤٤٨ رقم ١٣٥١.

فهذه الأساليب الخبرية المركبة من تلك الكلمات المختارة من شأنها أن تبرز المعنى مجسدًا في وضوح، وتلك هي البلاغة النبوية المتفردة، فهي «المثل الأعلى للبلاغة العربية، إذا كان كلام الله (كتاب) البيان المعجز، فإن كلام الرسول ﷺ (سنة) هذا البيان، وإذا كان البلاغ صفة كل رسول، فإن البلاغة صفة محمد ﷺ وحده».[١]

وربما جاءت الكلمات في الحديث النبوي على سبيل المشاكلة والازدواج كقوله ﷺ : «عَلَيْكُمْ بما تُطِيقُونَ، فو الله لا يَمَلُّ الله حَتّى تَملّوا».[٢]

وقوله ﷺ : «خُذُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا».[٣]

وهو من الأساليب التي يعرفها العرب ويمارسونها في أقوالهم، وهذا الملال صفة نفسية وحالة تنتاب الإنسان عندما يجد ثقلاً في نفسه من عمل ما، وهو «من صفات المخلوقين لا من صفات الخالق تعالى، فيحتاج إلى تأويل، فقال المحققون: هو على سبيل المجاز؛ لأنه تعالى لما كان يقطع ثوابه عمن قطع العمل ملالاً عبر عن ذلك بالملال، من تسمية الشيء باسم سببه، أو معناه لا يقطع عنكم فضله حتى تملوا سؤاله».[٤]

وربما دارت الكلمات دورتها في الاستخدام المنتزع من بيئة المتلقي ومن مجتمعه الذي يعايشه كقوله ﷺ : «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ».[٥]

١- أحمد حسن الزيات – وحي الرسالة – ط٥ – نهضة مصر – القاهرة – ١٩٦٤ – ١٠٥/٣.

٢- اللؤلؤ والمرجان صـ١٣٢ رقم ٤٤٩.

٣- اللؤلؤ والمرجان صـ٢١٥ رقم ٧١٢.

٤- اللؤلؤ والمرجان صـ١٣٣.

٥- اللؤلؤ والمرجان صـ١٣٣ رقم ٤٥٢.

فالإبل المشدودة بالعقال (الْمُعَقَّلَةِ) مشهد مألوف يعرفه كل من عاش في مجتمع النبي ﷺ.. والمتلقي يقف على وظيفة هذا العقال ومدى أهميته فأمعن النبي ﷺ في التوضيح والبيان، فصور مشهد الإمساك ومشهد الإطلاق بقوله: [عَاهَدَ – أَطْلَقَهَا] وذلك في إطار سياق المقابلة؛ لترتسم صورة المحافظة على القرآن الكريم.

إن السمات الجمالية التي تبدو هنا مبعثها من تملك القدرة على التكثيف والتجسيد في عمل تصويري بديع قوامه الألفاظ والتراكيب.. إن إحاطة المبدع بجوانب الحياة «ومعايشته للأحداث وللطبيعة يجعلانه قادرًا على الإفادة من القدرات التخييلية وربط الحدث أو الحالة التي تشكل منطق تجربة له بما عرف من قبل أو ببعض الخصائص والسمات فيها».[١]

وربما جاءت الكلمات موزعة منثورة في شكل تفصيلي بديع تصاحب المعاني في طياتها كقوله ﷺ: «إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ أَوْ يَكُونُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ، فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ تُوَافِقُ الدَّاءَ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ».[٢]

فتوزيع الكلمات مختار ليلائم كل لفظ معناه ومقصوده؛ فجعل الشرْطة مع المِحجم، والشربة مع العسل، واللذعة (الحرق) مع النار، فظهر التناسب والانسجام بين أطراف الحديث؛ وذلك لأن «الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ».[٣] وقال الإمام النووي في شرح مسلم: فهذا من بديع الطب عند أهله.. فكأنه نبه ﷺ بالعسل على المسهلات وبالحجامة على إخراج الدم بها،

١- د. فايز الداية – جماليات الأسلوب – ط٢ – دار الفكر المعاصر – بيروت – ١٩٩٦ – صـ٣٧.

٢- اللؤلؤ والمرجان صـ٤٦٩ رقم ١٤٢١.

٣- دلائل الإعجاز صـ٩٥.

وبالفصد ووضع العلق وغيرها مما في معناها، وذكر الكي لأنه يستعمل عند عدم نفع الأدوية المشروبة ونحوها».[١]

وربما جاءت الكلمة لتوحي بمشهد الغليان وفوران الحرّ، يقول ﷺ : «الْحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ».[٢]

فقد حمل هذا الأسلوب الخبري تلك الكلمات الموحية بجو الحر وسطوع الفيح، فالقدر تفوح عند الغليان، وهو مشهد منتزع من البيئة يعرفه كل أحد، ويستشعر درجة غليانها وشدة حرارتها، فلما أُسند الفيح إلى جهنم صار المعنى في قمة الحضور والإيحاء، والأسلوب بما حمل من كلمات تُجسد صفة ويبرز طبيعتها ويثبت خلقها، فيثير مشاعر النفور والخوف في نفس المتلقي..

وربما جاءت الجملة الخبرية حاملة الكلمة الاستعارية فتعمل على النشاط الذهني وإعمال الفكر، ففي حديث عائشة - ﷺ - أن بعض أزواج النبي ﷺ قُلْنَ للنبي ﷺ : «أَيُّنَا أَسْرَعُ بِكَ لُحُوقاً ؟ قَالَ: «أَطْوَلُكُنَّ يَدًا»، فَأَخَذُوا قَصَبَةً يَذْرَعُونَهَا، فَكَانَتْ

سَوْدَةُ أَطْوَلَهُنَّ يَدًا، فَعَلِمْنَا بَعْدُ أَنَّمَا كَانَتْ طُولَ يَدِهَا الصَّدَقَةُ، وكَانَتْ أَسْرَعَنَا لُحُوقًا بِهِ، وَكَانَتْ تُحِبُّ الصَّدَقَةَ».[٣]

فهذه جملة خبرية، حذف المبتدأ لظهوره بدلالة السياق، ونصب (يَدًا) على

١- اللؤلؤ والمرجان صـ٤٧٠.

٢- اللؤلؤ والمرجان صـ٤٧٠ رقم ١٤٢٤.

٣- اللؤلؤ والمرجان صـ٥٤١ رقم ١٥٩٥، وقد جاء في رواية مسلم من طريق عائشة بنت طلحة عن عائشة بلفظ «فكانت أطولنا يداً زينب لأنها كانت تعمل تتصدق» فتح الباري ٣٣٧/٣، وهو الأرجح والأقرب للصواب وتتبعه في ذلك ابن حجر العسقلاني، وبوّب الشيخ محمد عبد القادر هذا الباب: من فضائل زينب.

التمييز، ولم يرد النبي ﷺ باليد العضو، وبالطول طولها، بل أراد العطاء وكثرته؛ فاليد هنا استعارة للصدقة، والطول ترشيح لها؛ لأنه ملائم للمستعار منه،[١] و(أَطْوَلُكُنَّ) من الألفاظ المشتركة بين الحقيقة والمجاز، ولم يقل: (طولاكن) ليناسب ذلك جمع المذكر في معناه[٢] في (فَأَخَذُوا قَصَبَةً يَذْرَعُونَهَا) تعظيمًا ولم يقل: فأخذن.. يذرعنها.

وجاء الإخبار بتلك الألفاظ والصياغة؛ لأن الحوار كان خاصًّا بين النبي ﷺ وأزواجه -رضي الله عنهن- فالمتلقي هنا لم يكن عمومه، وإنما تفرد المقام مع صاحبه، قال ابن المنير: «لما كان السؤال عن آجال مقدرة لا تعلم إلا بالوحي أجابهن بلفظ غير صريح وأحالهن على ما لا يتبين إلا بآخر، وساغ ذلك لكونه ليس من الأحكام التكليفية».[٣]

وقد تأتي الكلمات في تجانس لطيف يلمس الآذان فيهز القلوب التي في الصدور؛ فمن ذلك قوله ﷺ : «غِفَارُ، غَفَرَ اللهُ لَهَا وَأَسْلَمُ، سَالَمَهَا اللهُ وَعُصَيَّةُ، عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ».[٤]

فهذه من قبائل وبطون العرب.. غفار وأسلم وعصية، وجاءت الأساليب الخبرية حاملة تلك الأسماء في ذلك السياق اللغوي على نسق متقارب، حسن التقسيم والتوزيع..

وأسلم سالمها الله : قيل دعاء، وقيل: خبر، وعُصَيّة عصت الله ورسوله يقتلها القراء ببئر معونة، وهذا إخبار ولا يجوز حمله على الدعاء، قال

١- اللؤلؤ والمرجان صـ٥٤١.

٢- فتح الباري ٣/٣٣٦.

٣- فتح الباري ٣/٣٣٨.

٤- اللؤلؤ والمرجان صـ٥٥٧ رقم١٦٣٦.

القسطلاني: «وانظر ما أحسن هذا الجناس في قوله: غِفَارُ، غَفَرَ اللهُ لَهَا... الـخ وألذه على السمع، وأعلقه بالقلب، وأبعده عن التكلف، وهو من الاتفاقات اللطيفة. وكيف لا يكون ذلك ومصدره عمن لا ينطق عن الهوى، ففصاحة لسانه -عليه الصلاة والسلام- غاية لا يدرك مداها، ولا يدانى منتهاها».[١]

والكلمات في الحديث النبوي تأتي مختارة بعناية لتعين المتلقي على فهم المراد والاستنتاج وتذوق المعنى، فيصير «الذوق أساسًا هامًّا لمقاربة النصّ، أو لإقامة علاقة معه ولتوثيق جسور هذه العلاقة، بحيث يحقق النّص متعة التواصل، ويفتح لنا أبوابه التي تمهد للعمل وتدفع انطلاقته».[٢]

١- اللؤلؤ والمرجان صـ٥٥٧.

٢- د. يمنى العيد - في معرفة النص - ط٣ - دار الآفاق الجديدة - بيروت - ١٩٨٥ - صـ١٩.

الخَاتِمَـــةُ

إن الأسلوب الخبري هو من الوسائل البلاغية التي يستطيع المتكلم بمهارتـــه وقدرته الفنية أن يطوعه لخدمة معناه وإبراز مقصوده، وهو وسيلة إرسال فعّالة بين المتكلم والمتلقي يستطيع المتكلم من خلالها أن يمتلك وجدان المتلقي ويملك حواسه ويؤثر فيه.. وقد اشتمل الحديث النبوي على تلـــك الأســـاليب الخبريـــة الكثيرة التي مرت بنا، فكانت تلك الأساليب في قوالبها وسياقاتها لها ميسم ذاتي وطابع شخصي متميز يُعرف به صاحبه ﷺ ويدل عليه، حتى عرف ذلك علماء الحديث والجرح والتعديل؛ فكانوا يقفون -أحيانًا- أمام بعض النصـــوص التـــي صحت أسانيدها، وفي النفس منها شيء، فلا يملكون إلا أن يقولوا: «لا يُشم منه رائحة النبوة»..

وعلى أن هذه الأساليب المتضلعة بدرر البلاغة وفلق الفصاحة قد تربعـــت على عرش البيان العربي، إلا أنها كانت بعيدة عن الغرابة والغموض منزهـــة عن الالتواء والصنعة، بل كانت واضحة وضوح الرسالة، قوية قـــوة الهـــدف، سوية استواء النفس..

وإذا كانت الأساليب الخبرية النبوية قد جاءت لأداء أغراضها البلاغية، فقـــد حملت في طياتها تصوير المجتمع وواقعه الاجتماعي والبيئي، فتبرز الأســـانيد الخبرية عاكسة مكونات الطبيعة الحية والصامتة – على نحو ما مرّ سابقًا مـــن الفرس والبعير والشاة أو الكبش الأملح – كما تعكس ما تعارفـــه العـــرب فـــي مجتمعهم من معاملات وأبرزها المعاملات التجارية، وقد أخبـــر فـــي حديثـــه الشريف: «أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ الله غَالِيَةٌ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ الله الْجَنَّةُ» أو ما اعتـــادوه مـــن ممارسة الرعي، كما في قوله ﷺ: «ما مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعاهُ اللهُ رَعِيَّةً..» كما مّـــر سابقًا.

هذا ولم يكن الأسلوب الخبري النبوي على وتيرة واحدة أو حالة شعورية واحدة، وإنما دار حيث يدور الموضوع وطبيعته ومقتضى حال المتلقي، فقد تشتد وطأته وتعلو نبرته عند النذير والوعيد والترهيب، وتخفو حدته عن الحديث عن الفضائل أو المناقب أو التبشير والترغيب، يطول ويطنب أحياناً، ويقصر ويوجز في أخرى، نحو وصفه لأهل الجنة : «كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ..» ووصفه لأهل النار: «كُلُّ عُتُلَ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ».[١] أو يأتي بعطية الله وتأييده وهي جوامع الكلم: «أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ» وفى رواية «أُوتِيتُ».

وقد كثر التعبير بالبناء للمجهول في الإسناد الخبري الذي يتحدث عن مشاهد الغيب أو عن أمر محتوم متحقق لا مرية فيه إذا كان الفعل ماضيًا، وربما جاء التلوين الخطابي دفعًا للسأم والملل أو تنشيطًا للذهن.

وقد دارت الأساليب الخبرية مع أغوار النفس وأعماق الوجدان تقف على خلجاتها وانفعالاتها وما تعيش به النفس في معترك الحياة، وقد مرت الأسانيد الخبرية التي دارت مع الحب كما مرّ في حديث : «لا يُؤْمِنُ أَحدُكُمْ حتى يُحِبَّ لأَخِيه ما يُحِبُّ لِنَفْسِه» أو الحديث عما يجتاح بعض النفوس ويعصف بتلك القلوب من القسوة وغلظ القلوب في الفدّادين، أو عوامل النفس من حسد ونحو ذلك، وربما اعتمد الإسناد الخبري على مخاطبة حواس الإنسان الظاهرة كقوله ﷺ : «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمانِ».[٢]، ونحو: «شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ»[٣]، ونحو: «أَطْوَلُكُنَّ يَدًا»[٤] ، ونحو: «.. وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا

١- اللؤلؤ والمرجان صـ٦٥٠ رقم ١٨١٤.

٢- اللؤلؤ والمرجان صـ١٨ رقم ٢٦.

٣- اللؤلؤ والمرجان صـ٤٦٩ رقم ١٤٢١.

٤- اللؤلؤ والمرجان صـ٥٤١ رقم ١٥٩٥.

الْوَجْهَيْنِ»[١].. أو الوصف الظاهري نحو: «مرجِّلٌ جمَّته»[٢].. وهذا كله يأتي في إطار المشهد الصوتي أو الحركي أو حسب ما يقتضيه المقام ومقتضى حال حالة المخاطَب الشعورية والفكرية.. بل اللغوية أيضًا «والصحابي أعلم بموارد الخطاب من غيره.. والعلم محيط بأنه ما خاطب الصحابة إلا بما يفهمون».[٣]

هذا وما زال المتلقي إلى يومنا هذا يتلقى تلك الأسانيد الخبرية الواردة في أحاديث الإعجاز العلمي بفهم جديد وتلقٍّ غير مسبوق يتوافق مع الاكتشافات العلمية الحديثة في مختلف المجالات ولا يصطدم معها.

وبعدُ، فإن القول ما قاله الحسين - ﷺ - «لن يُؤدِّى القائلُ وإن أطنب في صفة الرسول ﷺ من جميعٍ جزءًا».[٤] والحمد لله رب العالمين.

١- اللؤلؤ والمرجان صـ٥٦٠ رقم ١٦٤٢.

٢- اللؤلؤ والمرجان صـ٤٤٨ رقم ١٣٥١.

٣- فتح الباري ١/٤١٤.

٤- مصطفى صادق الرافعي - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - صـ٣٧٧.

ثـبَت المَصَـادِر وَالمَرَاجِـع

(١) د. إبراهيم أنيس – من أسرار اللغـة – ط٦ – الأنجلـو المصـرية – القاهرة – ١٩٧٨.

(٢) ابن الأثير – المثل السائر – تحقيق محمد محي الدين عبـد الحميـد – المكتبة العصرية – بيروت – ١٩٩٥.

(٣) أحمد حسن الزيات – وحي الرسالة – ط٥ – نهضة مصر – القاهرة – ١٩٦٤.

(٤) أحمد الشايب – أصول النقد الأدبي – نهضة مصر.

(٥) د. أحمد عبد الله العلي – مشاهد القيامة في الحديث النبـوي – ط٢ – دار الوفاء – المنصورة – ١٩٩٢.

(٦) د. أحمد مصطفى متولى – الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية – ط١ – دار ابن الجوزي – القاهرة – ٢٠٠٥.

(٧) الجاحظ – البيان والتبيين – تحقيق محب الـدين الخطيـب – مطبعـة الفتوح – القاهرة – ١٣٣٢ هـ.

(٨) ابن حجر العسقلاني – فتح الباري بشرح صحيح البخاري – مراجعـة وتصحيح: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الـدين الخطيـب وقصـي الخطيب – ط ١ – دار الريان – القاهرة – ١٩٨٦.

(٩) أبو الحسن الماوردي – أعلام النبوة – تحقيق/ عبـدالرحمن حسـن – مكتبة الآداب – القاهرة – ١٩٨٧.

(١٠) د. رجاء عيد – البحث الأسلوبي معاصرة وتراث – منشأة المعارف – الإسكندرية – ١٩٩٣.

(١١) سيد قطب – النقد الأدبي. أصوله ومناهجه – ط٦ – دار الشـروق – القاهرة – ١٩٩٠.

(١٢) ابن عاشور – التحرير والنور – دار سحنون – تونس ١٩٩٧.

(١٣) عباس حسن – النحو الوافي – ط٣ – دار المعارف – مصر

(١٤) د. عبد الجواد الصاوي – أطوار الجنين ونفخ الروح – الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

(١٥) عبد الفتاح الديدي – الخيال الحركي في الأدب النقدي (ط١) – دار المعرفة القاهرة – ١٩٦٥.

(١٦) عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي – مكتبة القاهرة – ١٩٨٠.

(١٧) عبد المتعال الصعيدي – بغية الإيضاح – مكتبة الآداب – القاهرة – ١٩٩٩.

(١٨) د. فايز الداية – جماليات الأسلوب – ط٢ – دار الفكر المعاصر – بيروت – ١٩٩٦.

(١٩) ابن كثير – صحيح معجزات النبي ﷺ - تحقيق محمد عيسى – ط١ – دار الغد الجديد – القاهرة – ٢٠٠٧.

(٢٠) محمد فؤاد عبد الباقي – اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان – دار الحديث – القاهرة – ٢٠٠٧.

(٢١) محمد لطفى الصباغ – التصوير الفني في الحديث النبوي – ط١ – المكتب الإسلامي – بيروت – ١٩٨٣.

(٢٢) مصطفى صادق الرافعي – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – ط٤ – مطبعة الاستقامة – القاهرة – ١٩٤٥.

(٢٣) النووي – رياض الصالحين بشرح ابن عثيمين – مكتبة الإيمان – المنصورة.

(٢٤) د. يمنى العيد – في معرفة النص – ط٣ – دار الآفاق الجديدة – بيروت – ١٩٨٥.